

الزبير القلي . غريب اللغة في شعر ابن شهيد الأندلسي بين التظاهر بسعة المحصول اللغوي والحاجة إليه - بحث في الخلفية المعرفية

## مقدمة

من الظواهر اللغوية في ديوان أبي عامر ابن شهيد ظاهرة الغريب التي تمثل سمة بارزة يمكن أن تلفت انتباه الباحث وتستوقفه. فقد ضم الديوان عشرات الكلمات من صنف ما يصطلح عليه بالغريب، وردت منبئة في ثنايا العديد من الأبيات وقوافيها، مشكلة -في كثير من الأحيان- عقبة كأداء أمام استنبان المعاني العامة للأبيات، مستدعية البحث والتتقير في المعاجم وكتب اللغة عن دلالات هذه الكلمات. فما المقصود بالغريب يا ترى؟ وماذا عنه في شعر ابن شهيد؟ وما هي الدوافع التي تقف وراء تَعَمُّد الشاعر توشيح شعره به؟

## أولاً: ماهية الغريب

### 1- المعنى اللغوي

تجمع المعاجم اللغوية على أن للغرابة معنى واحداً وهو الغموض والخفاء، فقد قال الخليل بن أحمد (ت175هـ) إنَّ "الغريب: الغامض من الكلام"<sup>1</sup>.

وقال الأزهري (ت 370هـ) إن "الغريب من الكلام: العقمي الغامض"<sup>2</sup>، وتعني كلمة العقمي "الغريب الغامض من الكلام"<sup>3</sup>، ويرجح أن يكون الأزهري قد أضافها من باب إعطاء صورة أكثر إبهاماً له، لأن الغموض درجات تتفاوت شدة وضعفاً، فجعل الغريب ما اشتد غموضه.

وشرح الزمخشري (ت528هـ) معنى غرابة الكلمة والكلام، فقال: "وفي كلامه غرابة، وعرّب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت فهي غريبة"<sup>4</sup>.

ومثل هذا الشرح أو ما يدانيه نجده متداولاً في معاجم لغوية أخرى من قبيل: المحكم لابن سيده (ت548هـ)<sup>5</sup>، ولسان العرب لابن منظور (ت711هـ)<sup>6</sup>، وتاج العروس للزبيدي (ت1205هـ)<sup>7</sup>، وغيرها.

### 2- المعنى الإصطلاحي

إذا كان معنى الغريب لغة هو الغموض فإن معناه الاصطلاحي يختلف عن ذلك قليلاً أو كثيراً تبعاً لاختلاف آراء اللغويين في ذلك. وتكاد تنحصر في ثلاثة معان، كما يأتي:

- **قِلة الاستعمال**: فقد عرف الزجّاجي (ت337هـ) الغريب بأنه ما قلَّ استعماله حين قال: "وأما الغريب فهو ما قلَّ استماعه من اللغة، ولم يدر في أفواه العامة، كما دار في أفواه الخاصة كقولهم .. فلان مُحْرَبِيٌّ لِيُنْبَاع أي مطرق لِيُنْب..."<sup>8</sup>؛ ومفهوم أن دوران الكلام في الأفواه هو الاستعمال.

وذهب إلى هذا المعنى -أيضاً- الأمدي (ت371هـ) في قوله: إن الحوشي أو اللفظ الغريب "لا يتكرر في كلام العرب كثيراً"<sup>9</sup>.

وقال بذلك -كذلك- ابن السّيد البطليوسي (ت521) حين فسر الغريب بما "لم تجر العادة باستعماله، أو كان قليل الاستعمال"<sup>10</sup>.

وذكر ابن الأثير (ت637هـ) أن الوحشيَّ من الألفاظ "إنما هو الغريب الذي يُقْلُ استعماله. فتارة يخف على سمعك، ولا تجد به كراهة، وتارة يثقل على سمعك، وتجد منه كراهة"<sup>11</sup>. ويلاحظ أن الغريب والوحشي -عنده- مترادفان. ويتبنَّى -من المحدثين- الرأي ذاته تمام حسان في تعريفه له بقوله: "والمراد بالغريب: المفردات التي ليست شائعة ولا معروفة في الاستعمال العام، فلا يعرفها إلا ذو البصر بمتن اللغة"<sup>12</sup>.

- مخالفة القياس: يتعلق الأمر -هنا- بالألفاظ المشتقة على غير قياس. وقد عبر عنها تمام حسان بأنها "المفردات العربية الأصل التي لا تخضع لقواعد الصياغة العربية المشهورة"<sup>13</sup>. وهي لا تمثل إلا أقلية من المفردات في كتب الغريب.

- غموض المعنى: استوحاه بعض اللغويين من شرح المعاجم اللغوية للغريب بأنه ما غمض معناه، ومنهم: الجاحظ (ت225هـ) في كتابه البيان والتبيين حيث قال: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشيَّ من الكلام يفهمه الوحشيَّ من الناس..."<sup>14</sup>.

وأبو سليمان الخطابي (ت338هـ) في تعريفه للغريب بقوله: "... يُراد به أنه بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد، ومعاناة فكر..."<sup>15</sup>.

وذهب إلى ذلك -كذلك- الزمخشري (ت528هـ) حين أشار إلى أن من أغراض المصنفين في الغريب "كشف ما غرِبَ من ألفاظه واستبهم"<sup>16</sup>.

ومنهم، كذلك، الشريف الجرجاني (ت816هـ) بقوله: "الغرابية كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال"<sup>17</sup>.

وإلى مثل هذا ذهب مُحدِّثون كثيرون<sup>18</sup>.

وقد ذكر ابن الأثير أن الغريب ينقسم إلى قسمين<sup>19</sup>، هما:

أ - الغريب الحسن، وهو ما كان من الألفاظ غامض الدلالة، لكنه سهل النطق، مقبول في السمع، لعدم تنافر أصواته، ومثلوا له بكلمة (كهل) التي تعني الضخم، و"كهل لفظة ليست بقبیحة التآليف، لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي"<sup>20</sup>.

ب - الغريب القبيح، وهو ما كان -أيضاً- غامض الدلالة، لكنه ثقيل النطق كراه السمع لتنافر أصواته، ويستشهدون على ذلك بما روي عن عيسى بن عمر النحوي (ت149هـ)، لَمَّا سقط عن حماره، فاجتمع عليه الناس فقال لهم "مالك تتكأؤون عَلَيَّ تكأؤون على ذي جِنَّةٍ؟ افرنقوا عَلَيَّ"، مما دفع بعض المتتبعين إلى استنكار ما ورد في هذا الكلام من حوشيِّ نابٍ بقوله: "فإنَّ (تتكأؤون) و(افرنقوا) وحشي، وقد جمع لعمرى العلتين مع قبح التآليف الذي يَمْجُهُ السمع والتَّوَعُرُ"<sup>21</sup>.

وبناء على ما تقدم، فإن الغريب هو أن تكون الكلمة قليلة الاستعمال أو مخالفة للقياس أو غامضة المعنى.

غير أنه لابد من التنبيه إلى أن الغرابة في اللفظ لا تتعدى أن تكون مسألة نسبية، بالنظر إلى أن اللفظة الغريبة، عند قوم معينين في فترة زمنية محددة، قد لا تكون كذلك عند قوم آخرين في مرحلة زمنية واحدة أو مراحل متعاقبة. بل إن الغريب يتوقف على إدراك المتلقي نفسه للكلمة، فقد تكون الكلمة في محصوله اللغوي، ومن ثمة لا تكون غريبة عنده، وقد لا تكون في محصوله اللغوي -مهما كان ثريا- فيترتب على هذا كونها غريبة عنه.

#### ثانياً: الألفاظ الغريبة في شعر أبي عامر بن شهيد الأندلسي

وهي ألفاظ أصبحت في عصر الشاعر قليلة الاستعمال أو مهملة، فبدا استخدامها غريباً، مع أنه -ربما- كان مألوفاً في العصور السابقة. وسوف نعود إلى ذكر طائفة منها، فنوضح معانيها من خلال شواهد شعرية من الديوان، مستعينين في ذلك بما ورد في بعض كتب الغريب والمعاجم اللغوية، ومن هذه الألفاظ على سبيل المثال لا الحصر:

1- الصِّل: ورد في "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت224هـ): "أبو عبيدة: الحية العاضة، والعاضة التي تقتل إذا نهشت من ساعتها. غيره: الصِّلُ مثلها أو نحوها"<sup>22</sup>.

وذكر ابن دريد (ت321هـ) أن هذا اللفظ قد يوصف به الإنسان في"يُقال: رجل صِلٌّ -إذا كان داهياً، وإنه لصيلٌ أصلال"<sup>23</sup>. ونحن نجد في شعر ابن شهيد بمعنى الداهي المنكر في الخصومة، يقول مقتخراً بسم لسانه اللادع<sup>24</sup>:

[كامل] (\*)

أَنَا صِلُّهُمْ عِنْدَ الْخِصَامِ فَخَلُّهُمْ      «      لِّلْسَانَ هَذِي الْحَيَةِ الرَّقْشَاءِ (11/1)

2- أَلْتُّ: ورد في لسان العرب تحت مادة (لثث): "وألث المطر إلتاثاً، أي دام أياماً لا يُقْلَعُ"<sup>25</sup>، وبهذا جاء قول ابن شهيد في سياق للوقوف على الأطلال<sup>26</sup>، من قصيدة يعارض فيها قيساً بن الخطيم(\*):

[طويل]

أَلْتُّ عَلَيْهَا الْمُعْصِرَاتِ بِقَطْرِهَا      «      وَجَرَّتْ بِهَا هُوجُ الرِّيَّاحِ مُلَاءَهَا (2/2)

و"المُعْصِرَات: ذوات المطر"<sup>27</sup>.

3- الْوَكَاءُ: جاء في لسان العرب تحت مادة (وكى) ما يلي: "الوكاء: كل سَيْرٍ أو خِيَطٍ يُشَدُّ بِهِ فَمِ السَّقَاءِ أو الْوَعَاءِ ... ابن سيده: الْوَكَاءُ رِبَاطُ الْقُرْبَةِ وَغَيْرِهَا الَّذِي يُشَدُّ بِهِ رَأْسُهَا"<sup>28</sup>. وقد استخدمه ابن شهيد ليدل به - مجازاً- على الحائل النفسي الذي قد يضمحل فتتخرط العين في البكاء، حيث قال في سياق متصل بالبيت السابق<sup>29</sup>:

[طويل]

حَبَسْتُ بِهَا عَدْوًا زَمَامًا مَطِيَّتِي      «      فَحَلَّتْ بِهَا عَيْنِي عَلَيَّ وَكَاءَهَا (3/2)

4- كَبَّةُ الصَّكَّةِ: الكبة بالضم ويفتح، الحملة في الحرب<sup>30</sup>، حيث يقول مادحاً<sup>31</sup>:

[طويل]

وَمِنْ حُطْبَةٍ فِي كَبَّةِ الصَّكِّ فَيُصَلِّ » حَسَمْتُ بِهَا أَهْوَاءَهَا وَمَرَاءَهَا (27/2)

**5- الخُدَّارِيّ:** ذكر "الغريب المصنف"، ضمن باب نعوت الليالي في شدة الظلمة، "أبو عمرو: ليلة غدرة ومغدرة وبيبة الغدر، إذا كانت شديدة الظلمة .... غيره: الخداري المظلم"<sup>32</sup>. وقد استخدم ابن شهيد هذا اللفظ بمعنى الجو من الحزن المرعب على التشبيه بالليل الشديد الظلمة، وذلك في رثائه للقاضي أبي العباس بن ذكوان (ت413هـ) حيث يقول:<sup>33</sup>

[طويل]

وخلنا الصَّبَّاحَ الطَّلَقَ لَيْلًا وَإِنَّمَا » هَبَطْنَا خُدَّارِيًّا مِنَ الحُرْنِ كَارِبًا (4/5)

**6- نُجْر:** ورد في جمهرة اللغة، من معكوس مادة (ج ر ن): "و النجر من قولهم: فلان من نجر كريم ومن نجار كريم، أي من أصل كريم"<sup>34</sup>. وقد جاء اللفظ في قول الشاعر، من قصيدة يعارض فيها البحترى(\*)، مزدريا الحياة الدنيا:<sup>35</sup>

[خفيف]

وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كَرَمَةٌ نُجْر » لَمْ تَكُنْ طُعْمَةً لِقُرْسِ الكِلَابِ (18/10)

**7- قَرَم:** سَيِّدُ القَوْمِ، دل به الشاعر - مجازا - على البُرْغوث، في قوله<sup>36</sup>:

[كامل]

قَرَمٌ مِنَ اللَّيْلِ البَهِيمِ مُكْمُورٌ » يَمْشِي البَرَّازَ وَمَا تُورِيهِ تِيَابُ (7/12)

وفي جمهرة اللغة، ورد، من معكوس مادة (رقم)، و"القَرَمُ من الإبل الفحل الذي لم يذلل بخطم ولا حَمَل ولا زَرَّ... وكثر ذلك حتى سُمِّي سيد القوم قَرَمًا"<sup>37</sup>. أراد أن يصور ما تختص به هذه الحشرة المؤذية من طبائع مميزة لها.

**8- الدَّوِّيَّة:** المنسوبة إلى الدَّوِّ، وهي الفلاة الواسعة، ورد اللفظ في قول ابن شهيد<sup>38</sup>، من قصيدة يعارض بها امرأ القيس (\*).

[طويل]

وَدَوِّيَّةٌ مِنْ فِتْنَةٍ مُذْلَهَمَةٌ » دَرِيْسُ الصُّوَى مَعْرُوفُهَا مُنْتَكِرٌ (13/24)

**9- الصُّوَى:** ورد اللفظ في البيت السابق بمعنى الأعلام المنصوبة يُهْتَدَى بها، وجاء في "الغريب المصنف" -ضمن باب ما دون الجبال من الأرض المرتفعة - "الأصمعي: ... والصُّوَى الأعلام المنصوبة [يهتدى بها]، وهو أحب القولين إلي للحديث الذي يُرَوَى "إن للإسلام صُوَى ومناراً كمنار الطريق"<sup>39</sup>.

**10- رَاؤ:** جاء في لسان العرب، تحت مادة (رير) "مخ رَاؤٌ ورَيْرٌ ورِيرٌ: ذائب فاسد من الهزال .... والرَّير: الماء يخرج من فم الصبي"<sup>40</sup>. وقد استعمل ابن شهيد هذا اللفظ بمعنى الذائب الفاسد من المخ، قال يهجو كاتباً<sup>41</sup>:

[بسيط]

وَيَحِ الْكُتَابَةَ مِنْ شَيْخِ هَبْنَقَةٍ      »      يَلْقَى الْعُيُونَ بِرَأْسِ مُحَّةٍ رَارُ (1/26)

وهَبْنَقَةٌ: لقب "يزيد بن تروان القيسي" المضروب به المثل في الحمق، أُجْرِيَ مجرى الصفة<sup>42</sup>.

**11- أروع:** الأروع: الحديد الفؤاد، وهو الرجل الذي يروع الناس<sup>43</sup>. قال ابن شهيد منوها بصديقه أبي محمد بن حزم لبلائه في مواجهة فقهاء المالكية بالأندلس بعد أخذه بالمذهب الظاهري<sup>44</sup>:

[طويل]

وَمَا جَرَ أَدْيَالَ الْعَنَى نَحْوَ بَيْتِهِ      »      كَارُوعٌ مُعْرُورٌ ظُهُورَ الْجَرَائِرِ (11/30)

وَمُعْرُورٌ: يقال اعرورى أمرا قبيحا: أتاه وركبه. والأصل في ذلك: "اغروريتُ الفرس والبعير: ركبته عريا"<sup>45</sup>.

**12- التأمور:** الدم، وذلك في قول الشاعر يشيد بوزاع التضحية لدى الممدوح<sup>46</sup>:

[كامل]

وَرَأَى الرِّمَانَ يَحِيدُ عَنْ تَأْمِيرِهِ      »      فسقى سهامَ المجد من تأموره (23/35)

وذكر أبو الحسن الهنائي (ت310هـ) في كتابه (المجرد في غريب كلام العرب ولغاتها): "التأمور: النفس، والتأمور: القلب.... والتأمور: الدم...."<sup>47</sup>.

**13- مُرْتَجِزٌ:** ما تدارك من الرعد صوته. ورد في (الغريب المصنف - باب السحاب الذي فيه رعد): "الأصمعي: من السحاب المُتَهَزِّمُ والهَزِيمُ والمُرْتَجِسُ. أبو زيد: يقال منه رجست السماء ترجس رجسا، ورجدت ترعد رعدا"<sup>48</sup>.

قال يصف عارضاً على غرار ما جاء في معلقة امرئ القيس<sup>49</sup>:

[طويل]

وَمُرْتَجِزٌ أَلْقَى بِيذِي الْأَثَلِ كَلْكَلا      »      وَحَطَّ بِجَرَاعٍ الْأَبَارِقِ مَا حَطَّ (6/39)

**14- المِصَاعُ:** ذكر ابن دريد: "مِصَاعُ الْقَوْمِ فِي الْحَرْبِ تِمَاصَعًا إِذَا تَعَالَجُوا، وَهُوَ الْمِصَاعُ وَالْمِمَاصِعَةُ. وَكُلُّ مَعَالِجَةٍ بِيَدٍ أَوْ سَيْفٍ مِمَاصِعَةٌ"<sup>50</sup>. ومنه قول الشاعر عادًا نقر سباع الطير للجرحى من أعداء الممدوح مقاتلة معه:<sup>51</sup>

[طويل]

تُمَاصِعُ جِرْحَاهَا فَيَجْهَرُ نَفْرُهَا      »      عَلَيْهِمُ، وَلِلطَّيْرِ الْعِنَاقُ مِصَاعُ (6/40)

**15- الشَّجَاعُ:** ذكر الحية. قال ابن شهيد يصف رجوع امرأة على أعقابها بعد تعرضه لها<sup>52</sup>:

[مقارب]

فولت وللمسك من ذيلها » على الأرض خط كظهر الشجاع (8/42)

وفي الغريب المصنف "الأفعوان الذكر من الأفاعي .. والشجاع نوع منها"<sup>53</sup>.

**16- يَقُق:** قال ابن دريد "اليَقُق: البياض ولا يُتَصَرَّف له فعل"<sup>54</sup>. وذكر أبو منصور الثعالبي (ت430هـ): "أبيض ثم

يَقُق ثم لَهَق" (55). وقد استخدمه ابن شهيد بمعنى شديد البياض، في وصفه لفتك المعتلي بالله (يحي بن علي بن

حمود) بالفرقة السودانية في وقعة إشبيلية، التي جرت على مياه النهر الكبير، فيقول<sup>56</sup>:

[بسيط]

وَسَاعَدَ الْفَلْكَ الْأَعْلَى بِقَتْلِهِمْ » حَتَّى غَدَا الْفَلْكَ بِالنَّاجِي بِهِ غَرَقَا (8/48)

مِنْ كُلِّ أَسْوَدَ لَمْ يُذَلَّفْ عَلَى تَلْجِ » بَأَنَّ جَدَّكَ يَجْلُو صَفْحَهُ يَقْقَا (9/48)

والتلج: الاطمئنان والثقة.

**17- الْغُرَائِق:** الشاب الحسن الشعر الجميل الناعم<sup>57</sup>. يقول ابن شهيد موصيا صديقه أبا محمد بن حزم بتأبينه بعد

موته: <sup>58</sup>.

[طويل]

فَلَا تَنْسَ تَأْبِينِي إِذَا مَا فَقَدْتَنِي » وَتَذَكَّرَ أَيَّامِي وَفَضَلَ خِلَاتِنِي (8/50)

وَحَرَكَ لَهُ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ فَنَّا » إِذَا غَيَّبُونِي كُلَّ شَهْمِ غُرَانِقِ

(9/50)

ويستشف أن الشاعر يدل باللفظ على الفتى الجامع بين جمال الوجه، ومعاني النبل والكرم ورفعة الشأن.

**18- خُلَاحِل:** سيد شجاع، وهذا في قول ابن شهيد يُهْدِي قَصِيدَتَهُ إِلَى الْمَمْدُوحِ<sup>59</sup>:

[طويل]

وَمَا رَمْتَهَا حَتَّى حَطَطْتُ رَحَالَهَا » عَلَى مَلِكٍ مِنْهُمْ أَعْرَّ خُلَاحِلَ (31/59)

وفي الغريب المصنف: وَالْخُلَاحِلُ السَّيِّدُ<sup>60</sup>.

**19- كَرَادِيْس:** جمع كَرْدُوس. ذكر ابن دريد: "والكُردُوس الجماعة من الناس.. وكراديس الإنسان أطراف عظامه

... وكل مفصلين اجتماعا فهو كردوس"<sup>61</sup>. وقد قصد به ابن شهيد المعنى الأخير، في سياق يشير إلى مشهد الأكل من

شواء الصيد نشلا بالأيدي<sup>62</sup>:

[طويل]

وَبَادِرُ أَصْحَابِي النَّزُولِ، فَأَقْبَلْتُ » كَرَادِيْسُ مِنْ غَضِّ السَّوَاءِ تُشِيلُ (8/59)  
20- المَلاغمُ: ما حول الفم الذي يبلغه اللسان، حيث يصف مرح الأبيكار الحسان بلعق قطرات الندى من فوق الأزهار المفتحة<sup>63</sup>:

[مجزوء الكامل]

أَصْنَافُ زَهْرٍ طَوَّقَتْ » دُررا تَذُوبُ بِكَفِّ  
ناظِمُ (10/69)  
بَكَرَ الحَسَّانَ يَرْدُنْتُهَا » من كل واضحة المَلاغمُ  
(12/69)

وجاء في "الغريب المصنف": "وقال الأحمر: الملاغم ما حول الفم، ومنه قيل: تَلَعَّمْتُ بالطيب إذا جعلته هناك"<sup>64</sup>.  
21- المَهَارِيْتُ الدَّلَاقِمُ: جمع مَهْرُوت، أي واسع الشدقين<sup>65</sup>، والدلاقم: جمع الدَلَقَم، وهي الناقة "التي يتكسر فوها، ويسيل مرغها وهو اللعاب"<sup>66</sup>(66). يقول ابن شهيد في سياق يشير إلى تجنبه صيد الطرائد المسنة<sup>67</sup>:

[مجزوء الكامل]

وَتَجَانِبِي فَتُوقِ الثُّفُو (م) س من المَهَارِيْتِ الدَّلَاقِمِ  
(40/69)

22- الرِّوَاسِمُ: الجمال التي ترسم معالم الطريق، قال<sup>68</sup>:

[مجزوء الكامل]

وبعيدة الأرجاء نا (م) زحة على أيدي الرِّوَاسِمِ  
(55/69)

وجاء في اللسان: "وناقة رسوم: تؤثر في الأرض من شدة الوطء"<sup>69</sup>.  
وفي "الغريب المصنف" باب ضروب مختلفة من سير الإبل-: "والرَّسِيم فوق الدَّمِيل"<sup>70</sup> وهو- أي الدَّمِيل - اللِّين من السير<sup>71</sup>.

23- الخُبَعْنَةُ الضُّبَارُمُ: ورد في "الغريب المصنف" - ضمن كتاب السباع باب الأسد - : "والخبعنة العظيم الشديد ... والضبارم الشديد الخلق"<sup>(1)</sup>، وقد استخدم ابن شهيد اللفظين في تركيب وصفي، حيث يقول، مهيبا بدور الممدوح، إلى استرداد مجد آبائه التليد<sup>73</sup>:

[مجزوء]

[الكامل]

حَكَمَ الزَّمَانُ بِظُلْمِهِمْ      »      دَهْرًا وَصَرَفُ الدَّهْرِ ظَالِمٌ  
(70/69)

فَارْتَدَّ بِهَجْجَةٍ مُلْكِهِمْ      »      كَرُّ الخُبْعَثَانَةِ  
الضُّبَارِمْ      (71/69)

وفي موضع آخر من الغريب نجد: "أبو عبيدة: الخُبْعَثَانَةُ من الرجال الشديد، وبه سُمِّيَ الأسد. الأصمعي: الخبعتنة من الرجال الشديد الخلق العظيم"<sup>74</sup>:

**24- الدَّادِي:** "ثلاث ليالٍ من آخر الشهر القمري، تأتي بين ثلاث حَنَادِسٍ وثلاث مُحَاقٍ"<sup>75</sup>. قال الشاعر يصف ممدوحه بالنور في ظلام الفتنة الحالك<sup>76</sup>:

[مجزوء الكامل]

فَمَرُّ نُضِيٍّ لَهُ الخُطُو      (م)      بُ عَلَى دَائِبِهَا الفَوَاحِمُ  
(75/69)

**25- الظَّيَّان:** ياسمين البر<sup>77</sup>، حيث يقول في الحنين إلى مراح الصبا<sup>78</sup>:

[كامل]

يَا صَاحِبِي إِذَا وَئَى حَادِيكُمَا      »      فَتَنَسَّقَا النَّفْحَاتِ مِنْ ظَيَّانِهَا      (12/75)  
**26- أدماء:** مؤنث آدم، وهو من الإبل الأبيض<sup>79</sup>، و"أنمُ الرجال البيض إلى السَّوَاد"<sup>80</sup>.  
**27- الدماء:** البحر<sup>81</sup>.

وقد ورد اللفظان رقما (26) و(27) في شطر واحد من بيت يصور حلول الظلام ليلاً، مشاركة منه للشاعر حداده، وقد بلغه نعي صديقه الوزير الكاتب أبي جعفر بن المماتي<sup>82</sup>:

[بسيط]

أَمِنْ جَنَابِهِمُ النَّفْحُ الجَنُوبِيُّ      »      أَسْرَى فَصَاكَ بِهِ فِي العُورِ غَارِيٌّ؟ (1/82)  
أَهْدَى إِلَيَّ ظَلَامًا رَدَعٌ نَافِجَةٌ      »      أَدْمَاءٌ شَقَّ بِهَا الدَّامَاءَ هِنْدِيٌّ

(2/82)

هذه عَيِّنة من ألفاظ الغريب التي تضمنها شعر ابن شهيد، لم نلتزم في استخراجها بترتيب خاص، إذ أن القصد هو التذليل على غرابتها لأهل عصر الشاعر، من خلال تتبعنا لها في المعاجم اللغوية القديمة وبخاصة بعض كتب الغريب التي عثرنا فيها على أكثر الألفاظ المستخرجة، ونلاحظ أنها -في مجملها- من نوع الغريب الحسن لتجانس

حروفها، وسهولة أدائها على اللسان، فضلاً عن كون الغرابة فيها وضعاً طارئاً، لا يلبث أن يزول بالإطلاع على معانيها.

ولكن السؤال الذي قد يتبادر إلى أذهاننا هو: ما شأن ابن شهيد بالغريب، وهو الشاعر الأندلسي الموطن، المؤدّ للغة؟ وهذا، بالنظر إلى اختلاف البيئتين الأندلسية والعربية طبيعةً وجذوراً تاريخية، وكذلك، بالنظر إلى انتماء الشاعر لُغَةً إلى مرحلة العربية المؤدّة: Neo-classical Arabic التي حلت في الاستخدام -عند العرب وغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام- محل العربية القديمة: Classical Arabic منذ النصف الأول في القرن الثاني للهجرة، واستمرت حتى نهاية القرن الخامس الهجري<sup>83</sup>.

إن الإجابة عن السؤال المطروح تكون بالتطرق إلى دوافع عامة وأخرى خاصة كانت سبباً في شيوع الغريب في شعر أبي عامر.

### ثالثاً: الدوافع العامة والخاصة إلى استخدام ابن شهيد للغريب في شعره

#### 1- الدوافع العامة

هي دوافع يمكن -للإيجاز- حصرها في أمر واحد. وهو اتجاه الأندلس دوماً شطر المشرق يأخذون منه العلوم، ومنها العلوم اللغوية متمثلة -بالخصوص- في النحو واللغة والغريب، التي كانت بمثابة أدوات البيان التي يتعين على الأديب إتقانها (84)، خاصة من وجهة نظر أنصار الاتجاه المحافظ، الذي سعى لغويّوه إلى تسييد ما كان يسمى بمذهب الأوائل، أي طريقة الجاهليين ومن حذا حذوهم من الشعراء الإسلاميين والعباسيين، في مقابل مذهب المحدثين الذين يغلب عليهم النهج على طريقة أبي تمام وابن المعتز وأبي نواس وأمثالهم<sup>85</sup>.

وقد نتج، عن تكرر هذه المعايير الأدبية التقليدية، اهتمام بالغ بالغريب بعده واحداً منها، ثمّ -بالخصوص- في احتفاء مستغرب بكتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام السابق الذكر، فقد روى عن أبي عمر الظلمكي (ت428هـ/1036م) أنه قال: "دخلت مرسية فتشبت بي أهلها ليسمعوا علي (الغريب المصنف) فقلت: انظروا من يقرأ لكم، وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده، فقراه علي من أوله إلى آخره، فعجبت من حفظه، وكان أعمى ابن أعمى!"<sup>86</sup>.

وأغرب من هذا ينسب إلى أبي بكر محمد بن محمد الأنصاري، المعروف بالأبيض، وهو شاعر، أنه أقسم -لمّا سئل عن لغة فعجز عنها بمحضر من حجل منه- أن يكبل نفسه حتى يحفظ "الغريب المصنف" على غرار ما فعل الفرزدق حين قيد نفسه وأبقاها في القيد حتى حفظ القرآن!<sup>87</sup>

ويذكر أن أبا بكر الأبيض قد سجل الحادثة بنظمه أبياتاً يصف فيها ارتياح أمه حين دخلت عليه فرأته مقيداً رجليه بقيد من حديد<sup>88</sup>.

#### 2- الدوافع الخاصة

يمكن حصرها في أمور عدة نشير إليها كالاتي:

(أ) حرص ابن شهيد -عموماً- على دعم شعره بأوفر حظ من قوة اللغة ومثانتها، ولو بطلب غريب اللفظ دون إفراط في استخدامه، مسaireً لبعض تيارات العصر في الأندلس والمشرق العربي<sup>89</sup>.

(ب) ولوعه بمعارضة الفحول من شعراء المشرق، القدامى منهم والمحدثين<sup>90</sup>، فقد عارض -كما أشرنا إلى بعضهم في ثنايا البحث- من الجاهليين: قيساً بن الخطيم، وامراً القيس (ت540م)، وطرفة بن العبد (ت569م)، ومن المحدثين: أبا نواس (ت198هـ)، والبحثري (ت284هـ)، وأبا الطيب المتنبّي (ت354هـ). كما قد تتعدى معارضاته مشهور الأشعار ليحتذي أبياتاً بعينها لشعراء من مختلف أطوار الشعر العربي القديم، من أمثال الشنفرى (ت510م)، وتابط شرا (ت530م)، وحاتم الطائي (ت605م)، وأمّية بن أبي الصلت (ت630م) ولبيد بن ربيعة (ت661م) من الجاهليين، والفرزدق (ت114هـ)، وجريير (ت114هـ)، وأبي تمام (ت228هـ)، وأبي فراس الحمداني (ت357هـ) وأبي العلاء المعري (ت449هـ) من المحدثين.

وبديهي ألا يقتصر تأثر ابن شهيد بهؤلاء وغيرهم على المعاني المحكية دون اقتباس شيء من ألفاظهم، وربما تراكيبهم وأساليبهم أيضاً، وهذا، كما هو الحال في أغراض النسيب البدوي التقليدي، والمديح، والفخر والثناء. فالنسيب -مثلاً- لا يخلو من وقوف على أطلال عَقَّتْها الرياح والمطر، يقتضي وصفها لغة بدوية، على نحو ما نلمسه في المقدمة الطللية (الأبيات من 1 إلى 12) من القصيدة الثانية في ديوان ابن شهيد -معارضاً بها همزية قيس بن الخطيم- حيث نلاحظ استخدام الشاعر كلمات كثيرة، رأى محقق الديوان، لغرابتها، ضرورة شرحها<sup>91</sup>. والمديح يتطلب عناية بالصياغة قوامها فخامة العبارة وتخير الألفاظ من الغريب<sup>92</sup>، إضافةً للوقار على قصائد المدح. ولا أدلّ على ذلك من تضمن قصيدة الشاعر رقم 69 من الديوان -في مدح عبد العزيز المؤتمن- عدداً معتبراً من غريب اللفظ، أبا الشاعر إلا جعله ضمن قوافي كثير من أبيات مدحيته، من قبيل: "الملاغم" و"البواغم" و"أقيال خضارم" و"عصم العواصم" والمهاريت الدلاقم" وغيرها مما سبق تناول كثير منه في العينة.

وليس الفخر بمختلف عن المديح في الحاجة إلى الغريب، ومنه استخدام الشاعر للفظ "صِلّ" بمعنى ذكر الحية، تُخَيَّره لكون الذكر أقوى من الأنثى في القتل<sup>93</sup>، و"أشد في تصنيف البشر"<sup>94</sup>، في قوله مفتخراً بطول باعه في هجاء الخصوم<sup>95</sup>.

وأما الرثاء، فهو لا يبدو أقل حاجة من المديح والفخر إلى الغريب من أجل توفية هذا الغرض حقه من معاني تهويل الرزية، والتفجع، والتنويه بخصال المرثي، وإسداء الجَمِّ العامة. وقد استخدم ابن شهيد غريباً كثيراً في مرثيه نذكر منه مما جاء في العينة كلمات "خداريا" و"أدماء" و"الدأماء" (96).

ويمكن الاطلاع على عدد آخر منها في القصيدة رقم 66 من الديوان، التي رثى بها الشاعر أبا عبدة حسان ابن مالك (ت416هـ)، والقطعتين: رقم 23 (وفيها 11 بيتاً) ورقم 80 (وفيها 3 أبيات).

(ج) رغبة ابن شهيد في تأكيد انتسابه العربي، واستعراض قدراته اللغوية مجازة منه لفحول شعراء المشرق الذين لم يتردد، في إحدى قصائده، في أن يخص بالذكر بعضاً منهم، ممن كان يرى فيهم مثله الأعلى في الشعر، وهم عبْدان الشعر، وكُوْبان العرب، والفرزدق، والصَلْتان العبدي.

فأما عبّادان الشعر فلا إخلاصهم لفنهم بالتحكيك والمعاودة<sup>97</sup>، ومنهم أوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، والحطيئة (ت59هـ). وأما ذُوبانها - وهم الصعاليك من شعراء الجاهلية - فربما لما تميز به شعرهم - عموماً - من تعبير عن معاني عزة النفس العربية، وخشونة العيشة البدوية بألفاظ حوشية صلبة، شديدة الإغراب<sup>98</sup>. وأما الفرزدق فلمكانته العالية في الشعر العربي<sup>99</sup>. وأما الصلتان العبدى فلمحاولته - في قصيدته العينية - الحكم بين الفرزدق وجريير أيُّهما أشعر<sup>100</sup>. قال ابن شهيد - في ختام قصيدة يهديها إلى ممدوحة - مفتخراً بحرائر قصائده وتنزه شعره عن الابتذال<sup>101</sup>:

[كامل]

|   |   |   |
|---|---|---|
| حُرُّ القَوَافِي مَاجِدٌ فِي أَهْلِهَا    | » | وَالشَّعْرُ عَبْدٌ فِي بَنِي عِبْدَانِهَا (37/75)   |
| مَدَحَ المُلُوكَ وَكَانَ أَيْضاً مِنْهُمُ | » | وَلَقَدْ يُرَى وَالشَّعْرُ مِنْ ذُوبَانِهَا (38/75) |
| أَمْسَى الفَرَزْدَقُ كُفُوها فِي حَوَكِهِ | » | وَجَرَى القَضَاءُ لَهَا عَلَى صِلَتَانِهَا (39/75)  |

#### خاتمة

من خلال ما تقدم، يتضح أن الغريب - لغة - هو الغامض من الكلام، في حين أنه - اصطلاحاً - ما كان قليل الاستعمال، أو مخالفاً للقياس، أو غير ظاهر المعنى.

وهو نوعان: غريب قبيح يعاب مطلقاً، لكونه غامض الدلالة، متنافر الحروف، ثقيل الأداء على اللسان، وغريب حسن قد يكون غير ظاهر المعنى، أو غير مأنوس الاستعمال - بحكم أن الغرابة مسألة نسبية - ولكنه متجانس الأصوات، سهل النطق، لا يعاب استعماله في حالات معينة، كما هو الحال بالنسبة للأعراب الخالص - مثلاً - أو في القرآن والحديث.

وقد شكل الغريب - حتى ولو كان من نوع الحسن - في شعر ابن شهيد ظاهرة مُحيرة لكون الشاعر أندلسي المولد والنشأة، مؤلداً للغة لا تربطه - في الظاهر - صلة مباشرة بلغة البادية وصحراء شبه الجزيرة العربية، التي نلاحظها - على نحو لافت للنظر - في أغراض النسيب التقليدي والمديح والفخر والرثاء من أغراض شعره.

ولكن إخضاع طائفة مما ورد من الألفاظ الغريبة في الديوان للدراسة اللغوية، والبحث في مكونات ثقافة الأديب في عصر الشاعر، وخصوصاً ما تعلق منها بما من شأنه التمكين من معرفة مفردات اللغة العربية، إضافة إلى إدراك جوانب من الرؤية الشعرية لابن شهيد بينت أن - ثمة - دوافع ووقفت وراء تعمد ابن شهيد توشيح شعره به، وهي كالتالي:

دوافع عامة تمثلت -بالخصوص- في ما كان للغريب في عصر الشاعر، من أهمية بالغة في الثقافة الأدبية الأندلسية جعلت منه أداة أساساً من أدوات البيان التي يتعين على الأديب تحصيلها.

دوافع خاصة يمكن حصرها في ثلاثة أمور، وهي:

حرص ابن شهيد على دعم شعره بجزالة اللغة ومثانتها، خصوصاً في أغراض شعرية معينة يحتاج فيها إلى تضخيم المعنى باستخدام الألفاظ ذات الجرس الرنّان.

ولوع الشاعر بمعارضة فحول شعراء المشرق من قدامى ومحدثين.

رغبته في استعراض قدراته اللغوية تأكيداً لأصالته العربية، ومسايرةً لبعض تيارات عصره.

وهكذا، فإن تعمد ابن شهيد استعمال الغريب في شعره تظاهراً بسعة محصوله اللغوي، على حد زعم بعض الدارسين، لم يكن إلا غاية واحدة من غايات عديدة دفعت بالشاعر إلى توظيف هذا الصنف من مفردات الثروة اللغوية.